مواقف من الاستشراق الإفريقياني

ابراهيم اسحق ابراهيم

يسعى هذا المقال لخلق قران مقبول يستوعب إلى حد ما الاتجاهات الذهنية الصلبة التي تصر على الفصل بين حقلي الدراسات الشرقية والدراسات الإفريقية. وهذا الاستيعاب لا ينجح بأية درجة ما لم يمكن لخلق المعبر الفسيح بين الحقلين، بحيث تبدو التشابهات بين خواص هذه الدراسات، في حقليها الجغرافيين، متوحدة الملامح وخاضعة لأحادية في المنهج. ولنقل ببساطة ان الذهن الغربي الذي شكل المنهج التاريخي للدراسات الجارية في الحقلين الشرقي والإفريقي كان غير منشق على نفسه حسب الاتجاهين الجغرافيين. وإضافة لذلك فإن الزحف المستمر لرقعة التداخل بين الشرق وإفريقيا في خارطة العالم العربي الإسلامي كان مربكاً للمناهج الغربية وهي تتعامل مع إفريقيا العربية الإسلامية. وذلك الإرباك يتطابق تماماً مع إرباك أساسي يواجه تلك المناهج الغربية منذ عهد مبكر وهو طاقة الجماعة المسلمة، أينا وجدت، على مقاومة الضغوط العدائية الواقعة عليها. ومن هنا تتوحد جذور ومظاهر الجماعة العربية الإسلامية في الشرق وأفريقيا معاً، وتلزم دواعي هذا الاتحاد مناهج الباحثين الغربيين بالتماثل والتطابق.

ستحصر هذه المعالجة نفسها في بعض المهام والانجازات التي قام بها في إفريقيا رحالة وباحثون مثل هنريش بارت، لودفيج بوركهارت، جوستاف ناختيفال وليو فروبينيوس. ولنفترض منذ البداية أن اشتراكهم جميعا في الهوية الألمانية لم يكن تمييزاً لهم عما سواهم من الإفريقيانيين الغربيين، وهو أيضا قد لا يؤثر كثيراً في خطوط معالجتنا للظاهرة الإفريقيانية كاستشراق. ثم يتمثل النقاش الرئيسي لخطة هذا القران الاستشراقي الإفريقياني في ملاحظات تتخذ من بارت وفروبينيوس دون غيرهما بؤرتين تطلع منهما أغلب أمثلتنا. أما كيف نستوعب هؤلاء الألمان الأربعة في دائرة الاستشراق كجسم معرفي، وفي ذات الوقت نتوصل للإقرار باسهامهم في ترقية المعارف الإفريقية، فهو أمر قد يحوجنا إلى البحث عن تعريف سائغ للاستشراق وتحديد للمسارات الانتقالية في رحلات هؤلاء الباحثين ثم مراجعة لما قد أنجزوا في كل من الحقلين الدراسيين.

أوجز أنور عبد الملك، صاحب المقالة المعروفة في نقد الاستشراق، نقلا عن موسوعة لاروس الكبرى، تعريفاً للمستشرق يقول: «العالم المتضلع في معرفة الشرق ولغاته وآدابه... الخ»(١). ثم قفا على آثاره إدوارد سعيد بتعريف مسهب هو: «فكل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه — ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصاً بعلم الإنسان، أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخاً، أو فقيه لغة في جوانبه المحددة والعامة على حد سواء، هو مستشرق، وما يقوم هو أو هي بفعله هو استشراق»(٢). ويخلق هذان التعريفان مشكلة تنبع من مصطلح «الشرق»، لكننا نتجاوزها بتبسيط جغرافي عملي. فشرقي المتوسط بذاتيته الاسلامية العربية يفرض وجود جناحات متنامية لهذه الذاتية، على المستويين التاريخي والجغرافي. أما الجناح التاريخي فيتغلغل في أوربا وآسيا إلى أبعاد موغلة، ثم تقتضي الضرورة أن ينسحب عن بعضها من بعد. ويمتد الجناح الجغرافي ليغطي البلاد العربية والاسلامية والبقاع التي تأثرت بالعرق واللسان العربي، نطقاً أو كتابة، وبالثقافة الإسلامية، من أوربا الجنوبية حتى إفريقيا الإستوائية، ومن المحيط الهادي إلى المحيط الأطلنطي.

بمفهوم هذه الجناحات يتم تصنيف طائفة من الافريقيانيين كمستشرقين. وبينا ينظر كثير من المؤرخين في مجال الاستشراق إلى الباحثين الغربيين في مناطق شرق المتوسط ومصر والمغرب العربي بعين القبول، لا يكاد أحد يلقي نفس النظرة على بحاثة بلاد السودان وما يتبعها جنوبي الصحارى الإفريقية الكبرى إلا

بشيء من التجاوز. ولعل طائفة من المهتمين بالتصنيفات الاستشراقية لا يستطيع إطلاق صفة المستشرق على أي من الألمان الأربع الذين انتخبتهم هذه المعالجة إلا على ضوء من خلفيات رحلاتهم واهتماماتهم في شرق المتوسط وشمال إفريقيا العربية. ونجد مثالاً لهذا الموقف في مقال عنوانه «الرحالون الألمان إلى البلاد العربية»، كتبه محمد علي حشيشو [٣].

حظي بوركهات هناك بحوالي ثلاثين وستمائة كلمة كانت كلها عن مساعيه في مصر وجزيرة العرب. أما رحلته إلى شمال سودان وادي النيل عام ١٨١٣م فلم يشر المؤلف إلى ما تضمنتها أو نتجت عنها إلا في حوالي ستين كلمة فحسب. ورغم أن تلك الرحلة قد مدت المتخصصين في تاريخ المنطقة بمادة مرجعية تناهت في أهميتها[٤]، إلا أن الكاتب يوجز أخبارها في عجالة، قائلاً: «وكانت خطة بوركهارت أن يبدأ رحلته الاستكشافية الإفريقية من مصر فيلتحق بقافلة إلى فزان، وبعدها يواصل رحلته لاكتشاف منابع النيجر. وبينما كان ينتظر القافلة في القاهرة، تمكن من مقابلة محمد علي باشا، الذي أعجب بشخصيته وبعلمه، وأمده بتوصيات للقيام برحلة إلى النوبة. وإذ أعتبر هنالك جاسوساً لباشا مصر فقد مُنع من مواصلة رحلته، فالتحق بقافلة كانت تسير كل عام من الصعيد عبر الصحراء النوبية إلى سجندي وسنار. وفي سجندي[٥] تحول مع قافلة أخرى عبر طريق لم يطرقها أوربي بعد، تمر من بربر إلى سواكن، على البحر الأحمر، ومنها أبحر إلى جدة»[٦].

إن التقليل من شأن القطاع العربي الاسلامي بإفريقيا في معالجات مصنفين للاستشراق من النوع الأحادي النظرة قد تنجلي مثالبه إذا ما نظرنا إلى قائمة الرحالين الألمان إلى البلاد العربية كما عدّدهم في مقاله محمد علي حشيشو. فهنالك فيلبراند فون أولدنبورغ، فيلهلهم فون بولد نزيله، لودلف فون زودهايم، برنارد فون برايدنباخ، آرنولد فون هارف، تليهم بعثة جامعة جوتنجن التي نجا منها كارستين نيبور وحده، ثم أولرش ياسبر زيتسن، وأخيراً بوركهارت. وكل المذكورين، عدا بوركهارت، ساحوا في شرق المتوسط ومصر ولم يتعدوا تلك المناطق جنوباً أو غرباً. أما ناختيفال وبارت وفروبينيوس فألمان رحلوا في بلاد السودان وأثروا الدراسات الاستشراقية التي يصنف فيها حشيشو وأضرابه، لكن الذي قلناه في المبتدأ عن ذلك الفصل التعسفي بين الحقلين الاستشراقي والإفريقياني هو الذي يعيق النظر إلى تضمينهم وسط الرحالين إلى البلاد العربية.

ومع ذلك فإن ميل كثير من هؤلاء الباحثين الرحالة نحو كلية المعرفة (Polyhistory) كانت بمثابة قران كاف، في حد ذاته، للعبور بين الاستشراق والإفريقيانية. فقد دفعت بهم كلية المعرفة نحو تعدد الرحلات وتنويع الميادين، فذهبوا أحياناً إلى الحقل الشرقي وأحياناً تجولوا في الميدان الإفريقي. بوركهارت توزع بين جزيرة العرب ووادي النيل، ورحل بارت في الأناضول وأوربا الشرقية والجنوبية وبلاد السودان الغربي والأوسط[٧]، وركب فروبينيوس مع المراكبية العمانيين والحضارم عام ١٩١٥م في المحيط الهندي ليدرس أثرهم الثقافي على إفريقيا[٨]. وهكذا ينتج عن ذلك الازدواج في اجتهاد هذه الفئة من الباحثين تداخل في المعرفة والمعالجة بين الحقلين الشرقي والإفريقي، ثم ينطبع على مجالات هذا التداخل كله وسم المنهج الغربي السائد في الدراسة (أو الكتابة) عن «العالم المختلف» والمغاير للغرب، أكان شرقياً أو إفريقياً.

لتأكيد وحدة المنطلق والمنهج في الأبحاث الشرقية والإفريقية قد نسأل أنفسنا. إلى أي حد اختلفت نظرة الغرب إلى كل من شرق المتوسط وأفريقيا خلال الفترة الواقعة بين القرن الخامس عشر والعشرين للميلاد؟ وما نوعية العقول التي خططت للتعامل الغربي مع هاتين المنطقتين طوال هذه الحقبة؟ فمن الإجابة على سؤالين كهذين تنشأ متشابهات للخلفيات التاريخية والمحركات العقلية المؤثرة في الاستشراق والإفريقيانية، ويتأكد بذلك قالبهما المفرد. ومن ثم تعيدنا هذه التساؤلات للعروبة والإسلام ومواجهتهما للغرب. يستشهد غسان سلامة بقول لإدوارد سعيد (ثم ينقده) نصه هو أن «المشرق العربي والإسلامي واجه أوربا وحده بتحد لم تستطع تعديه، سياسي وثقافي وإلى حد اقتصادي»[٩]. وهذا التحدي الذي كان دينياً ولغويا وعرقياً يمتد من الفتح الاسلامي للشام والمغرب والأناضول عبر الحروب الصليبية وما بعدها. ثم تندمج العروبة اللغوية والعرقية في الإسلام خلال الأزمنة التي تنضم فيها إلى هذا الكيان المتحدي أعراق ولغات جديدة تشربت ثقافاتها بالإسلام والعربية والعروبة. يصور هشام جعيط، كما يروي غسان سلامة، هذا الاندماج بقوله: «ليست العروبة مفهوماً إثنياً حتى ولو كانت كذلك في البدء: إنها البوتقة الثقافية حيث تمازجت عناصر إنسانية شديدة الاختلاف مما سمح لها لاحقاً بالتعبير عن ذاتها»[١٠]. وتجيء

عناصر أخرى لتزيد الترابط الآسيوي الإفريقي، في إطاره الإسلامي والعربي، أمام مواجهة النهضة الأوربية الطالعة في القرن الخامس عشر الميلادي.

ضمن هذه العوامل نجد الجغرافي والتاريخي والحضاري. وناصيف حتي يستشهد ببيير رومدو ليؤكد أن التلاصق «الجغرافي بين إفريقيا والمنطقة العربية كان من أهم العوامل التي دفعت تاريخياً إلى تفاعل بين المنطقتين. وساهم ذلك في انتشار العقيدة الاسلامية في معظم أنحاء القارة الإفريقية. وبذلك نقلت إحدى بذور المواجهة العربية الأوربية إلى إفريقيا. فالتبشير المسيحي الذي استخدم في أحيان كثيرة كغطاء للاستعمار الأوربي التقليدي اصطدم بالانتشار الإسلامي وكان من بين أهداف الاستعمار محاولة احتواء النفوذ العربي ــ الاسلامي وإخراجه من قواعده في إفريقيا. كذلك ساهم التلاصق الجغرافي في تعريب شمال إفريقيا وأجزاء من شرقها في مرحلة مبكرة من مراحل الانتشار الاسلامي. وتواصل التفاعل بين شعوب السواحل الشمالية والشمالية الشرقية لإفريقيا في ظل الاستعمار الأوربي الذي وُجد في كل أنحاء القارة وساهم في ذلك التفاعل استمرار التجارة بين مراكزها التقليدية شمال وجنوب الصحراء»(١١).

هكذا تزامن التهديد الأوربي للشواطىء الإفريقية غرباً وشرقاً مع تهديد للشواطىء الجنوبية والغربية والشرقية لجزيرة العرب خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وسرعان ما تحولت الاحتكارات التجارية كدافع لارتياد الشواطىء العربية إلى صراع حول الاستراتيجيات بين البرتغال وهولندا وإنجلترا وفرنسا. وفي نفس الوقت تحول الاحتكاك التجاري بين الأوربيين وأفارقة الشط الغربي إلى انتزاع مئات الآلاف من الأهالي وتحميلهم في السفن عابرات القارات نحو الأراضي الجديدة. أوربا في عصر الثورة الصناعية،وهي تبحث عن الأسواق والمواد الخام والمحطات الاستراتيجية، ظلت مهاجمة للشعوب الأخرى في القارات الخمس بضراوة. وبينا بلغت هذه المزاحمات الأوربية على استغلال إفريقيا وآسيا، تجارياً وسياسياً، قمتها في القرن الثامن عشر، ولدت ظاهرة الرحالة الأوربي الطامع في الوصول إلى أعماق جزيرة العرب ومجاهل إفريقيا. ومنذئذ، وعبر القرن التاسع عشر، حتى العشرين، تكاد تزدوج هذه المساعي نحو القارتين. فالحلم بدخول مكة المكرمة والمدينة المنورة يجاور الحلم باكتشاف منابع النيل والنيجر. في القرن الثامن عشر جاب جيمس بروس شواطىء البحر الأحمر من السويس إلى باب المندب ثم توغل في الحبشة ونهر النيل. ولما طلع القرن التاسع عشر رأينا بوركهات يزور بلاد النوبة، ويحاول السفر إلى فزان والنيجر، ثم يصل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. ورتشارد بيرتن يحضر في مكة عام ١٨٥٣ موسم الحج ثم ينزل إلى زنزبار عام ١٨٥٦ ليصحب سبيك في رحلته لاكتشاف منابع النيل.

لحد ما يمكن اعتبار المؤلفين من الرحالة الأوربيين إلى آسيا وإفريقيا طلائع للاستشراق والإفريقيانية. والقول بالتواطؤ الاستعماري للاستشراق لم يعد بدعة منذ ظهور كتابات شهيرة في هذا الحيز لنقاد مثل أنور عبد الملك، محمد البهي، فروخ والخالدي، مالك بن بني، إدوارد سعيد وهشام جعيط. أما كيف أسس الرحالة الأوربيون لزيادة المعلومات التي تطورت عليها كل من عمليات الاستشراق والاستعمار في مجاليهما فهي مسألة تحتاج إلى النظر في بعض المؤلفات التي أرخت لهذه الرحلات ومحركاتها الثقافية والفكرية. ونجد مثالين لهذه في كتابي جاكلين بيرين وساري ناصر(١٢). ولعل القرن السابع عشر هو الوقت المناسب للنظر لبدايات الاستشراق كعمل علمي معتبر حيث ظهرت كتب قواعد العربية وموسوعات عن العالم الاسلامي في أوربا.. كذلك انتشرت كراسي تعليم اللغة العربية في جامعاتها ثم أنشأت الجمعيات الخاصة بالدراسات الشرقية في هذا القرن والقرن التالي(١٣). لودفيكو دي فارتيما البولوني كان قد زار مكة المكرمة والمدينة المنورة عام ١٥٠٤ م على الأرجح متنكراً في زي المماليك، وسرعان ما ترجمت روايته إلى اللاتينية وانتشرت في أوروبا(١٤). وفي أواسط القرن السابع عشر وصل غريغوريو داكوادرا البرتغالي إلى المدينة المنورة مدعياً الانتساب للإسلام(١٥). وربما صح وصول المطران الهندي ماثيو دي كاسترو إلى المدينة المنورة عام ١٦٤٣(١٦). ثم في مطلع القرن الثامن عشر نشرت قصة زيارة الإنجليزي جوزف بيتس دكستير إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت ستار الرق(١٧).

مع تزايد أخبار الرحلات إلى شواطىء ومدن الجزيرة العربية ظلت إفريقيا مجهولة الأعماق حتى تنبه أوائل المستشرقين لترجمة أعمال الجغرافيين المسلمين. فمختصر لكتاب الإدريسي (ت ١١٥٤م) نشر في إيطاليا عام ١٥٩٢ وترجم عام ١٦١٩م. ثم ترجم لاروك كتاب أبي الفداء (ت ١٣٣١م) إلى الفرنسية عام

١٧١٧ وصدرت باللاتينية في لندن عام ١٦٥٠م[١٨]. وتوالت ترجمات للأصطخري والمقدسي وابن بطوطة (ت ١٣٧٩م) في القرن التاسع عشر. أما الأصول العربية لكتب الجغرافيين المسلمين، وفيهم بالإضافة إلى السابقين ابن حوقل (ت ٩٩٧م) والبكري (ت ١٠٩٤م) وابن سعيد والحسن بن الوزان (ت ١٥٥٠) وابن خلدون (ت ١٤٠٦)، فقد كانت الأساس لكتاب الجغرافي الإنجليزي وليام ديسبورو كولي المسمى (Negroland of the Arabs) الصادر في لندن عام ١٨٤٠م.

لكن قاعدة سبق الرحالة لأعمال المستشرقين فيما يخص استكشاف مجاهل القارتين لم تكسر في إفريقيا أيضاً. فكتاب الرحالة الإنجليزي براون «أسفار في إفريقيا ومصر وسوريا من ١٧٩٢ إلى ١٧٩٨» ظهر في لندن عام ١٧٩٩م. وكان هذا المغامر قد زار مملكة دارفور الإسلامية في بلاد السودان الأوسط آنئذ. وزار مملكة دارفور ذاتها وجارتها مملكة وداي بعد عام ١٨٠٣ الرحالة العربي محمد بن عمر التونسي. ثم ترجم أخبار سفرتيه الطبيب الفرنسي بيرو ونشرهما في باريس عامي ١٨٤٥ و١٨٥١ على التوالي. وفي الوقت الذي تجول فيه الرحالة الفرنسي كايو في نهر النيل الأوسط كان كلابرتون ودنهام وودني يستكشفون شمال ووسط إفريقيا بين ١٨٢٢ و١٨٢٤م. حول توالي الرحالة في زياراتهم لبلاد العرب إنطلاقاً من موقفهم كطلائع استراتيجية كتبت جاكلين بيرين متحدثة عن النفوذ الفرنسي في مصر وسوريا ولبنان وشمال إفريقيا وقتئذ: «وهذا ما يفسر معنى وجود الفرنسيين في البحر الأحمر اعتبارا من عام ١٨٣٠. ولم تكن غايتهم من ذلك رسم خرائط لسواحله، بل كانت الحبشة هي التي اجتذبتهم، فلم يمر كومب وتاميزيه وفيّره وغالينيه وروشه وهيريكور بشبه الجزيرة العربية إلا سعياً وراء هدفهم الحقيقي في مكان آخر»[١٩]. ورغم سلامة طوية كثير من الكتاب الرحالة وحرصهم على تصوير الحياة العربية والإفريقية على الهيئة التي شاهدوها إلا أن تعميم إدوارد سعيد اللاذع حول موقف غالبيتهم غير الإرادي، رحالة ومستشرقين، يظل واضحاً للعيان. في رأي إدوارد سعيد: «ذلك أنه في اللحظة الحاسمة التي كان فيها على المستشرق أن يقرر ما إذا كان ولاؤه وتعاطفه مع الشرق أو مع الغرب الفاتح، اختار المستشرق الغرب دائماً، منذ زمن نابليون وحتى اللحظة الحاضرة»[٢٠].

في كتابه «جاذبية الإسلام» ١٩٨٠، والذي حوى رداً على الهجوم الذي شنه المشارقة على الاستشراق، سرد مكسيم رودنسون تاريخ المواجهة الثقافية والفكرية الناتجة عن الاحتكاك طويل الأمد بين الشرق والغرب، ثم توصل لرأي نير حول مذاهب الاستشراق. قال رودنسون: أن الشك العقلاني الأوربي كان ينظر للإسلام كدين عقلاني بمقابل الدغماطية الكاثوليكية، وكان ينظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم كحاكم سموح وعادل، وأن أوربا القرن الثامن عشر نظرت نحو الشرق المسلم بعين صديقة ومتفهمة. ثم يردف: «هذه النظرة العقلانية الموحدة سوف تنكسر خلال القرن التاسع عشر إلى ثلاثة تيارات متمايزة: الأول هو الاستشراق الاستعماري النفعي الساعي وراء المعلومات الضرورية لتثبيت هيمنة المستعمر وإزاحة العقبات أمام تقدمه، والثاني هو الاستشراق العاطفي الشعري الباحث عن إثارات غريبة خارج أوربا القديمة المضجرة، والثالث هو تيار التجميع العلمي الأكاديمي المنكب على تكوين جهاز علمي ذي مستوى عال لفهم الشرق»[٢١].

هذه الأطر كانت أحب إلى قلب غسان سلامة من تجاهل إدوارد سعيد النسبي لبعض المكاسب المهمة التي يمكن تحصيلها من أعمال المستشرقين الجديين، ومن تذويب أنور عبد الملك للحصيلة الاستشراقية في حركة تحرر شعوب العالم الثالث من الإمبريالية، ومن تناسي هشام جعيط للخطر الكامن في التعلم على أيدي المستشرقين دون نخل لمواقفهم.[٢٢] وهذا الشمول من غسان سلامة يشبه كثيرا التفهم الذي يبديه رضوان السيد وهو يداور حول الرافضين مطلقاً للاستشراق، واللائذين دائما بالمادة الاستشراقية كمعين، ومقلدي المستشرقين، ليؤكد جدوى التأمل النقدي الاستشراقي الرصين، ذلك الذي لا يلمز الاستشراق في جهده ولا تعشى أبصاره البهرجات[٢٣]. مثل غسان سلامة ورضوان السيد يبرز موقف عقلاني من الاستشراق للشيخ حمد الجاسر وهو يشهد مؤتمر باريس عام ١٩٧٣. فالجاسر يعترف بالإسهام العلمي للإستشراق في إحياء التراث العربي وفي توصيف وفهرسة المادة المتغربة الموجودة في دور الحفظ الغربية. ومع ذلك فإن الدور الاستعماري لقطاع معين من الاستشراق لم يغب عن باله، ويرى الجاسر أن ذلك الطور يغالب فقط بالعلم المتنامي الذي يشيده ويتربى عليه المشارقة[٢٤].

يمكننا أن نتعرف على النماذج الثلاثة التي شخصها مكسيم رودنسون في أوساط المستشرقين الألمان الذين عملوا في الحقل

الإفريقي خلال فترات متفاوتة من القرنين التاسع عشر والعشرين. فالمتواطىء الاستعماري هو كارل هينر ش بيكر، مؤسس (مجلة الإسلام) الألمانية والمتوفى عام ١٩٣٣. وكان بعض البحاثة العرب قد برأ الاستشراق الألماني تماماً من أية أهداف استعمارية أو تبشيرية أو عداء للعرب أو الإسلام.(٢٥) ثم حصل الرايخ الألماني منذ عام ١٨٨٥ على مستعمرات إفريقية يقطنها مسلمون في الساحل الشرقي وبقيت فيها حتى عام ١٩١٨. وقد دفع هذا الوضع بسمارك لتأسيس معهد اللغات الشرقية ببرلين عام ١٨٨٧ وتجهيزه للحصول على معلومات عن الشرق الإسلامي ولإعداد موظفين يلمون باللغات الشرقية كي يعملوا في السلك الدبلوماسي أو التبشير الديني. ويشهد أوليريش هارمان على انغماس بيكر في المؤامرة الاستعمارية الألمانية بإفريقيا في قوله :«كانت الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامي قبل عام ١٩١٩ أقل براءة وصفاء نية، فقد كان كارل هينرش بيكر — وهو من كبار مستشرقينا — منغمساً في النشاطات السياسية، حتى إنه أصبح في عام ١٩١٤ شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في إفريقيا والهند كدرع سياسية في وجه البريطانيين».(٢٦).

أما في جانب الاستشراق الإفريقياني الجدي والملتزم فيبرز ألمان متأخرون مثل أوغست فيشر الذي تخصص في المغرب العربي وأنو ليتمان الخبير في الدراسات الحبشية. فإذا عدنا إلى عصر الرحالة هواة المعرفة الكلية في أواسط القرن التاسع عشر واجهنا عملاقان في الكشف الجغرافي والتاريخي والإثنوغرافي واللغوي لبلاد السودان هما هنريش بارت وجوستاف ناختيقال. وكان بارت قد طاف في غرب ووسط إفريقيا بين الأعوام ١٨٤٩ و١٨٥٥ حيث زار مملكة باقرمي وبلاد الفولبا والهوسا والكانوري. وساعده تحدثه اللغات المحلية الانفة الذكر وتمكنه من العربية وتأقلمه على عادات الأهالي المسلمين في لباسهم ومآكلهم وأخلاقهم الحميدة على اكتساب الاحترام في أوساط الجماعات والسلطات الإقليمية التي مرّ عليها. ولم يغفل بارت عن الاطلاع على كتاب وليام ديسبورو كولي حول جغرافية غرب إفريقيا وكذلك على كتاب كلابرتون ودنهام (Narratives of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa) الصادر في لندن عام ١٨٢٦. وإلى جانب هذين استخدم بارت مؤلفات الجغرافيين العرب الذين كتبوا عن العلاقات التجارية والسياسية الباكرة بين ممالك بلاد السودان ودويلات طوائف شمال إفريقيا. وكانت ثمار رحلته مدهشة في حقول الجمع اللغوي والأدبي والتاريخي والجغرافي. ويعتبر كتابه (Resien in Afrika) بمجلداته الخمسة، بالإضافة لما سبق، إسهاماً عظيماً في مجال الرصد الإثنولوجي.

تجول بارت في بلاد السودان الغربي في وقت لم تنضج فيه دراسات اللغات الشرقية، هذا إلى جانب أن المنطقة التي ساح فيها ظلت حتى يومذاك شبه مجهولة لدى الأوربيين. وكانت حركة التوغل الإسلامي في بلاد السودان، والتي بدأت منذ القرن الهجري الخامس، قد جمعت بين العرب والبربر وشعوب السافانا جنوبي الصحارى الإفريقية الكبرى طوال القرون العشرة التي تلت، جمعتهم في المغازي وفي التجارة والدبلوماسية وفي قوافل الحج وطلب العلم. وكان في مقدور بارت أن يتعرف على تاريخ هذا التوغل الإسلامي الطويل الأمد في تلك المناطق من خلال المخطوطات التي إطلع عليها وأجتزأ منها لأوربا لأول مرة مثل كتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي تلميذ أحمد بابا التمبكتي المسمى «تاريخ السودان»، وكتاب «تزيين الورقات بجمع مالي من الأبيات» لعبد الله شقيق الداعية الكبير عثمان بن فوديو، وكتاب «الإنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور» لمحمد بيلو بن عثمان بن فوديو. ورغم أن ترجمة إنجليزية للكتاب الأخير كانت قد أضيفت لكتاب كلابرتون ودنهام عام ١٨٢٦ إلا أن «تاريخ السودان» لم ينشر إلا عام ١٨٩٨ كما لم ينشر «تزيين الورقات» إلا عام ١٩٢٠. وقد استند بارت إلى فحوى هذه المخطوطات وإلى المتواتر الشفهي الذي عاصره مما يرويه الأهالي عن مغازي المرابطين وعصور ازدهار ممالك غانا وسنغاي وكانم وبرنو وودّاي ثم حركة الفولبا السلفية لكي يسجل صورة تاريخية رائدة لانتشار الاسلام واللغة العربية في بلاد السودان. وبذلك تم إدراك الجاذبية التي نالها الاسلام في تلك المناطق عندما ذوّب الخلافات القبلية والعشائرية وأقام حكماً موسعاً ومستقراً تحت زعامة ملوك أسلم أسلافهم ثم تمسك الأخلاف من بعدهم بعقائدهم وممارساتهم (٢٧).

يلخص فيلكس كلاين فرانكه الإنجاز الاستشراقي الإفريقياني لبارت في ثلاثة مقاطع. عن عمله في مجال التاريخ يقول:« إن أبحاث بارت في تاريخ السودان ذات قيمة لا تقدر لأنها تعتمد إلى

حد بعيد على مصادر مخطوطة لم تنشر بعد وكانت مجهولة في أوربا تقريباً. وقد قام بارت بفحص النصوص ومقارنتها وبالتدقيق في صحة معلومات الجغرافيين العرب وبتقديم افتراضات وتعليلات وتصويبات حيثما اعتقد بوجود تناقض أو اختلاف في المعلومات».(٢٨) وعن عنايته بالمعارف الجغرافية والإثنولوجية واللغوية على السواء يقول فيلكس: «لقد قام بارت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة عن السودان. ولم يستفد من أبحاثه واكتشافاته حقلا الجغرافيا والإثنولوجيا فحسب، وإنما أفاد الاستشراق من ذلك بنفس القدر. فلم يبحث أحد من قبله تاريخ الإسلام في السودان كما فعل هو. ولكن كتابه «رحلات في أفريقيا» لا يعتبر مصدراً لا ينضب بالنسبة للمؤرخ فحسب، بل وكذلك بالنسبة لعالم اللغة بين المستشرقين».(٢٩) أما عن مكانة عمل بارت في ترسيخ أقدام الاستشراق ببلاد السودان فيقول فيلكس: «فالسودان مثلاً ، ظل، بغض النظر عن التاريخ العربي، فترة طويلة على هامش الدراسات والأبحاث الاستشراقية. وحاول بارت منذ ذلك الحين مواجهة هذه العزلة، وذلك بنقله للأبحاث الاستشراقية من حدود الشرق إلى قارة جديدة، إلى عالم جديد، يحتاج إلى مزيد من التقصي والاستكشاف»(٣٠).

إن الوضع الحالي للغة العربية كوسيلة للتفاهم بين شعوب قطاع كبير من غرب إفريقيا، وكمخزن تأثير ثابت على لغات متميزة كالهوسا والفولاني والماندي والصنغاي والولوف والكانوري، إنما ينبع التأريخ له من الملاحظات الأولية التي قدمها بارت في أواسط القرن التاسع عشر. فبالإضافة إلى التقارب الذي صنعه الإسلام واللغة العربية بين شعوب غرب إفريقيا، ساعدت العقيدة واللغة أيضاً على ربط غرب إفريقيا بالكيان العربي الإسلامي العريض بشكل ثابت. صورة ذلك الربط نراها في عبارات لمحمد جلال عباس تقول: «إن هذه الشعوب الإفريقية التي دخلت الإسلام قد أصبحت بحكم إنتمائها إلى الأمة الاسلامية على صلة بلغة الأقوام التي تعربت في الشمال الإفريقي والتي ترجع إلى أصول عربية في الشمال الإفريقي أيضاً وفي الشرق الأوسط وبخاصة مهبط الوحي في الحجاز. فقد انفتحت العلاقات عبر الصحراء تجارياً وسياسياً، وامتدت على طريق الحج مما ألزمها باستخدام اللغة العربية للتفاهم عبر هذين المحورين»(٣١).

ولأن ناختيغال لم يكن أقل حرصاً على الجدية العلمية من بارت فإننا لن نمكث لديه طويلاً. ففي الأعوام ١٨٧١ و١٨٧٤ رحل ناختيغال من طرابلس الغرب عبر فزان إلى أربع ممالك إسلامية تقع في بلاد السودان الأوسط والشرقي هي كانم وبرنو حول بحيرة تشاد ثم شرقاً إلى مملكتي ودّاي ودارفور، ومنهما نزل مع النيل إلى مصر. وقد جاء كتابه ذي المجلدات الثلاثة (Sahara Und Sudan) والمطبوع في برلين عام ١٨٧٩ حاوياً لمادة غنية بسجل التراث الشفهي التاريخي والملاحظات الجغرافية والإثنواغرافية التي أنارت كثيراً من حيوات المناطق التي زارها. وبالطبع لا ينكر أحد أن الإمبريالية ، في عصر التكالب على إفريقيا، تمكنت من استخدام هذه المجهودات العلمية كي تشق طريقها إلى هذه المناطق الإفريقية، لكن ذلك لا يضيف الاستشراق الجدي غير المتواطىء بالضرورة إلى الأدوات الاستعمارية التي كانت للإمبريالية جاسوسها الحضاري وشاهد الزور واللسان المبرر لمخططاتها وأوزارها.

ونصل إلى ليو فروبينيوس (١٨٧٣ ــ ١٩٣٨) فنجد صورة نافرة للتمازج بين مدلل الأجهزة الاستعمارية والهاوي «العاطفي الشاعري الباحث عن إثارات غريبة خارج أوربا القديمة المضجرة» كما يقول رودنسون. فبدلاً من الاستفادة من إنجازات بارت وبراون وناختيغال واضرابهم، أو تفهم الوعي الذي جلبه القرن العشرون للعلوم الاستشراقية في مجالات الإثنوغرافيا وقريباتها خاصة، نرى فروبينيوس يتردى في طلب صورة الشرق الوهمي الذي كان يبحث عنه لين ولامارتين وفلوبير ونرفال وشاتوبريان، وفي نفس الوقت يشارك أثنين من أكثر رواد الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر تعالياً وبغضاً لأهل البلاد المرتادة كل عيوبهما، ونعني بهما جورج فورستر سادلير المبعوث البريطاني في بومباي وجيفورد بلغريف.

شغل فروبينيوس بتجميع مواد إفريقية صنفت تحت علم الانثروبولوجيا الثقافية. وقد رفضت له إحدى شعب الدراسات الإفريقية بألمانيا أطروحة للدكتوراة فصرف النظر عن مساعيه الأكاديمية وصار إثنوغرافياً هاوياً. ثم قام فروبينيوس ما بين ١٩٠٤ و١٩٣٥، أي بعد إستتباب الأستعمار في معظم البقاع الإفريقية، بإثنتي عشر رحلة إلى هذه القارة حيث طاف بأركانها، فالتقى بأقزام الكنغو والبربر وعرب جبال الأطلس وفزان والهوسا

واليوروبا في غرب إفريقيا والسواحليين بشرقها. وقد جمع فروبينيوس من المواد الثقافية ما كونت متحفاً يعرف باسمه في فرانكفورت. أما مؤلفاته، وكلها تدور حول الثقافات الإفريقية، فقد بلغت نيفاً وأربعين مجلداً. وكانت زيارته للخرطوم وكردفان قصيرة جدا إذ لم يمكث إلا ما بين منتصف فبراير ومنتصف إبريل من عام ١٩١٢. وكانت كردفان محطاً لرحلات علمية مثمرة خلال القرنين السابقين أشهرها التي كانت لروبل ١٨٢٩ والدكتور شارلز كني ١٨٥٧ ثم براو ١٨٧٦. ومثلما حضر علي بك (أو دمنغو باديليا أي لبليخ الإسباني) في مكة عام ١٨٠٦ موكب الحج للإمام سعود بن عبد العزيز، كان فروبينيوس في مدينة الأبيض عاصمة كردفان يوم ١٩١٢/٢/٢٧ حينما وصلها لورد كتشنر لافتتاح خط السكة الحديدية الواصل إلى هناك.

كان يصحب فروبينيوس، الذي لا يتكلم أية لغة غير أوربية، في رحلة كردفان، دليلاً يرجح كونه شامياً ويدعى محمد الموقاقسي. وكانت السلطة الاستعمارية في السودان ابان حكم الإنجليز تهوى استعمال الشوام في قلم المخابرات. ولهذا يرجح أن السلطات الاستعمارية قد ألحقت ذلك الدليل بفروبينيوس حتى يقوده حيث تشاء السلطات ويكون عيناً عليه. ولما لم يعطنا فروبينيوس أية إشارات تخص طريقة جمعه للتراث الشعبي الذي حصله في كردفان فإن الاحتمال قائم بأن المترجم كان قد ساق فروبينيوس إلى أوساط التجار الصعايدة والإغريق والهنود واليهود والحضارم واليمنيين في الأبيض ولم يتركه يتعرف على أهل البلد. وفي عام ١٩٢٣ خرجت الحصيلة التي جمعها فروبينيوس من رحلته تلك تحت اسم (حكايات شعبية من كردفان)(٣٢).

ضمت هذه المجموعة الحاوية لإثنتي عشر حكاية ومعها مقدماتها كل ما يمكن أن يعد نابياً في حق الثقافة السودانية. فعلى غرار فلوبير ولين كان فروبينيوس يؤمن بأن الشرق وإفريقيا تتصفان بانعدام الاحتشام في المسائل الجنسية، في واقع الحياة وفي الأدب على السواء(٣٣). ويقود هذا الرأي أصحابه إلى الاعتقاد في وجود الإباحية والإفراط الجنسي والشذوذ لدى الأمم الشرقية والإفريقية. وبعدئذ فهذا النمط المفترض في صورتهم الشرقية أو الإفريقية لا يتغير مع الزمن. ويكفي لمن يجمع الإثنوغرافيا من الشرق أن يقرأ ترجمات بيرتن وليتمان وغيرهما لكتاب (ألف ليلة وليلة) ثم يذهب إلى الشرق ليجد الدلائل على استمرار تلك الخواص الشاذة بين الأهالي. وكان المناخ الأخلاقي المتشدد في العصر الفكتوري بأوربا مساعداً على نشر هذه الصور التي يؤمن أولئك الكتاب برواجها لدى المجتمعات العفوية أو الهمجية، كما يدّعون ، في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وأوشانيا. ولم يمض زمن قليل حتى كانت دور النشر الغربية تخرج تلك الحكايات التي جمعها فروبينيوس من كل أنحاء إفريقيا تحت بند «الإيروتيكا» أو المثيرات.

كان فروبينيوس كما تدل مقدمته للمجموعة الكردفانية حريصاً على اصطناع علاقات غير موجودة بين حكاياته الإفريقية، خاصة الكردفانية منها، و(ألف ليلة وليلة). ويبدو أنه جاء إلى الأبيض لا لشيء إلا لسماع حكايات تؤكد نظريته هذه. وهذا الشعور يجعل الدليل المترجم يقوده فقط إلى أوساط الغرباء حيث يتوقع سماع مثل تلك الحكايات. فإذا أضفنا إلى ذلك رحلة فروبينيوس عام ١٩١٥ على سفينة شراعية مع المراكبية الحضارم كي ينظر في احتمالات تأثيرهم على ثقافات شرق إفريقيا لاحظنا كيف كان يفكر عام ١٩١٢ ابان زيارته لكردفان. وعلى كل حال فإن مقدمته للحكايات الكردفانية كانت صريحة إذ يقول «إني أرى بين القصص التي جمعتها في السودان والقصص التي قرأتها في (ألف ليلة وليلة) شبهاً كبيراً يثير التفكير في الرابطة بين الأبيض مثلاً في غرب السودان وفارس بلاد العجم. يخيل إليّ أن النبع الذي نقل منه السودان هو عين النبع الذي نهل منه مبدعو (ألف ليلة وليلة)»(٣٤).

وهكذا يسقط فروبينيوس في أخطاء المناهج والتطبيقات المعهودة للمدرسة الانتشارية (Diffusionist) في دراسات التراث الشعبي والأديان واللغات وغيرها حيث لا تفسر التماثلات بين تراث الشعوب المتباعدة إلا من خلال نظَرية الاحتكاك والاتصال والاستلاف.

كان لقصر المدة التي قضاها فروبينيوس في كردفان، وانحيازه إلى فكرة النمطية الشرقية الثابتة حتى قبل أن يبدأ جولته، وعداءه للأهالي ثم إلتصاقه بالسلطات الاستعمارية، كان لكل هذه اليد الطولى في جعل إسهامه الاستشراقي الإفريقياني المفرد يمثل فشلًا ذريعاً. وبذلك صارت مادته مصطنعة في الجمع ومغلوطة في التعليل والتفسير. ورغم أن فروبينيوس كان في مجالات إفريقيا المدارية أكثر نجاحاً، الشيء الذي أكسبه عطف حركة

«الزنوجة» (Negritude) التي يمثلها ليوبولد سيدار سنغور وأنصاره، إلا أنه في سودان وادي النيل كان عدائياً وخارجاً عن مألوف العلماء. ففي المقدمة لمجموعته من حكايات كردفان وصف فروبينيوس سكان المنطقة الوسطى من نهر النيل بالبربرة والجهل وما رأى في أرضهم إلا سماجة الطبيعة كما يقول.(٣٥) وهذا يذكرنا بسادلير وبلغريف الذين رميا بدو الجزيرة العربية بأوصاف فادحة مثل الهمجية والفساد(٣٦). ومن ثم يعيدنا هذا النهج المغرض إلى طائفة المستشرقين دعاة الخصوصية السفلى لكل ما هو غير أوربي أو ليس بغربي.

بدا فروبينيوس عام ١٩١٢ في كردفان، بملابسه الأفرنجية ولغته الأوربية ودليله الشامي، أبعد ما يكون من هيئات بوركهارت وبارت وناختيقال الذين سافروا في ملابس الأهالي وبين جماعاتهم وشاركوهم طعامهم وتكلموا لغتهم ثم احترموا كل ما يخصهم. لكن فروبينيوس ظل يمشي في رحاب الاستعمار الإنجليزي الذي حطم قبل ثلاثة عشر عاماً فقط من وصول فروبينيوس إلى تلك البلاد ثورة السودانيين الكبرى المعروفة بالمهدية، ثم لم يتوقف حتى عام ١٩١٢ من اغتيال الأهالي تحت حجج إخماد الثورات الدينية. ومن طرف ثان فإن فروبينيوس لم يعرف عن سودان وادي النيل إلا ما هو مسطر في كتب الاستعداء الاستعماري السافر التي نشرها ريجنالد ونجت لكي يكسب بها تأييد مواطنيه لفكرة إعادة فتح السودان وهي (عشر سنوات في الاعتقال) ١٨٩٢ للقس أهرولد، و(السيف والنار في السودان) ١٨٩٦ لفون سلاطين، ثم (المهدية في السودان المصري) ١٨٩١ لونجت نفسه. وهكذا كان فروبينيوس يومئذ في واد وأهل البلد في واد آخر.

شهدت العقود الأولى من القرن العشرين سيطرة المستشرقين والإفريقيانيين من موظفي الاستعمار في معظم بلاد شرقي المتوسط وإفريقيا. فهنالك جلوب في الأردن وكرومر في مصر وماكمايكل في السودان وميك في نيجيريا وكاربو في شاد وهلم جرا. ثم تعلم أبناء البلاد المستعمرة، بعضهم على أيدي المستشرقين، وبعضهم على أيدي الإفريقيانيين الغربيين، حتى أصبح هؤلاء البلديين، تدريجياً، هم الإختصاصيين في شئون بلادهم. وهنالك آراء كثيرة تتصارع الآن حول مصير الاستشراق، وربما تواجه الإفريقيانية نفس الموقف. لكن الذي نميل إلى تأكيده في كلتي الحالتين هو رأي جدير بالتدبر يضعه غسان سلامة هكذا: «في اليوم الذي يضطر فيه الغرب لترجمة دراساتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عن بلداننا، باعتبارها أفضل المراجع المتوفرة عنا، نكون قد بدأنا دق المسامير في نعش الاستشراق».(٣٧) ولا نرى حتى الآن ما يمنع أن يصدق هذا القول في الوقت نفسه على الإفريقيانية المستوردة.

هـوامش

(١) أنور عبد الملك (١٩٨٣)، «الاستشراق في أزمة» في مجلة **الفكر العربي** بيروت، ع ٣١، مج ٥ ، يناير — مارس ١٩٨٣، ص ص ٧٠ — ١٠٥.

(٢) إدوارد سعيد (١٩٨١) ، **الاستشراق** ، تعريب كمال أبو ديب، بيروت ص ٣٨.

(٣) محمد علي حشيشو (١٩٨٢)، «الرحالون الألمان إلى البلاد العربية»، في **المستشرقون الألمان**، إعداد صلاح الدين المنجد، بيروت، ص ص ٧٩ — ٩٢.

(٤) نتج عن رحلة بوركهارت الى النوبة كتابه (Travels in Nubia, 1819) وهو مؤلف يتخذه دارسو تاريخ السودان الوسيط مرجعاً أساسياً. أنظر أعمال كرافورد، ماكمايكل، هولت، رتشارد هل، شبيكة ، سبولدنق، يوسف فضل حسن، ومصطفى محمد سعد.

(٥) المقصود مدينة (شندي) التاريخية في شمال السودان. وهذا الخطأ المتكرر لا يجوز عزوه للمطابع.

(٦) محمد علي حشيشو، المرجع السابق.

(٧) فيلكس كلاين فرانكه (١٩٨٢)، «أبحاث هنريش بارت في تاريخ الاسلام وانتشار اللغة العربية في إفريقيا»، ترجمة محمد علي حشيشو في **المستشرقون الألمان**، المرجع السابق، ص ص ٣٩ — ٥٤.

(٨) ابراهيم اسحق ابراهيم (١٩٨٢)، «كردفان ليوفروبينيوس» في جريدة **الصحافة** السودانية، الخميس ١٩٨٢/٧/٢٩، ص ص ٤ — ٥.

(٩) غسان سلامة (١٩٨١)، «عصب الاستشراق» في مجلة **المستقبل العربي**، بيروت، ع ٢٣، مج ٣، يناير ١٩٨١، ص ص ٤ — ٢٢.

(١٠) غسان سلامة، المرجع السابق.

(١١) ناصيف حتي (١٩٨٣)، «العرب والأفارقة في عالم متغير» في مجلة **المستقبل العربي**، بيروت، ع ٥٤، مج ٦، أغسطس ١٩٨٣، ص ص ٤٥ — ٧١.

(١٢) جاكلين بيرين .(ب ت) اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، بيروت. **Sari j. Nasir (1979), The Arabs and the English, London.**

(١٣) غسان سلامة، المرجع السابق، ص ١٦ وانور عبد الملك، المرجع السابق، ص ٧١.

(١٤) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ص ٣٨ — ٥٣.

(١٥) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ص ٦٥ — ٦٦.

(١٦) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ص ٩٠ — ٩١.

(١٧) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ص ٩٢ — ٩٦.

(١٨) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص صَ ١٣٦ — ١٤١.

(١٩) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ٣٢٦.

(٢٠) إدوارد سعيد، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٢١) غسان سلامة، المرجع السابق، ص ١٦.

(٢٢) غسان سلامة، المرجع السابق، ص ص ٥ — ١٤.

(٢٣) رضوان السيد (١٩٨٣)، «ثقافة الاستشراق ومصائره وعلاقات الشرق بالغرب» في مجلة **الفكر العربي**، المرجع السابق، ص ص ٤ — ٢٣.

(٢٤) حمد الجاسر (١٩٨٠)، **رحلات**، الرياض، ص ص ٢٩٩ — ٣١٩.

(٢٥) ميشال جحا (١٩٨٣)، «الاستشراق الألماني المعاصر» في مجلة **آفاق عربية**، بغداد، ع ١٠، مج ٨، حزيران ١٩٨٣، ص ص ٤٥ — ٤٩.

(٢٦) محمود حمدي زقزوق (١٤٠٤هـ)، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، قطر، ص ص ٤٤ — ٤٥.

(٢٧) فيلكس كلاين فرانكه، المرجع السابق.

(٢٨) فيلكس كلاين فرانكه، المرجع السابق.

(٢٩) فيلكس كلاين فرانكه، المرجع السابق.

(٣٠) فيلكس كلاين فرانكه، المرجع السابق.

(٣١) محمد جلال عباس (١٩٨٣)، «اللغة العربية في إفريقيا» في مجلة **الدارة**، الرياض، ع١، مج٩، يوليو ١٩٨٣، ص ص ١٧٦ — ٢٠٣..

(٣٢) إبراهيم إسحق إبراهيم، المرجع السابق.

(٣٣) إدوارد سعيد، المرجع السابق، ص ص ١٢٦ — ١٢٧ و١٨٦ — ١٨٧.

(٣٤) إبراهيم إسحق إبراهيم، المرجع السابق،

(٣٥) إبراهيم إسحق إبراهيم، المرجع السابق.

(٣٦) جاكلين بيرين، المرجع السابق، ص ٢٤٤ وص٣١٨.

(٣٧) غسان سلامة، المرجع السابق، ص ١١.